

التخصُّصُ الأخلاقيُّ بين المثاليَّةِ والوضعيَّةِ: فلسفةُ أخلاقيَّةِ عمليَّةٍ من منظورِ إسلاميٍّ

**The Discipline of Moral between Idealism and Ppositivism: A
 Practical Moral Philosophy from Islamic Perspective**

***Moral Sebagai Disiplin Ilmu antara Idealisme dan Positivisme :
 Falsafah Moral yang Praktikal dari Perspektif Islam***

علي محمود عكَّام *

ملخص البحث

لا يرمي هذا البحثُ في سياقه الدِّينيُّ إلى تكرارِ الخطابِ الأخلاقيِّ الدِّينيِّ ضمنَ أُطرٍ وعظيمةٍ مثاليَّةٍ، وأما هو أوَّلاً: دعوةٌ لإعادةِ درسِ نُظْمِ القيمِ في الفكرِ الدِّينيِّ عموماً والإسلاميِّ خصوصاً، وثانياً: انطلاقةٌ مقترحةٌ لحركةِ (التخلُّق) في مجتمعٍ متعثرٍ أخلاقياً، من خلالِ مقارنةِ فلسفيَّةٍ وعمليَّةٍ تحاولُ الخروجَ من مأزقِ الارتحانِ بينِ ثنائيَّةِ (المثاليَّةِ والوضعيَّةِ) في الفكرِ الأخلاقيِّ، وتُوطئُ لبيانِ معادلةِ أخلاقيَّةٍ بينيَّةٍ بُحليِّ المنطلقِ العمليِّ والواقعيِّ، وتنصبُ في الآنِ ذاتهِ الهدفَ المثاليَّ المنشود. وفي التَّسقِ الأخلاقيِّ الإسلاميِّ نفعٌ على مُركَّبٍ بديعٍ اندججتِ على ما في كِلا النَّسقينِ (المثاليَّةِ والوضعيَّةِ) من مزايا، وتنزَّهتِ عمَّا آلا إليه من آفاتٍ ومحاذِرَ، وقد كان ذلك فيها عبرَ فلسفةِ (التخصُّصِ الأخلاقيِّ) التي تلوِّحُ شواهدُها في كثيرٍ من نُصوصِ المأثورِ الإسلاميِّ، أتى البحثُ على استقرائها وعرضِ نماذجٍ منها، فكانتِ فلسفةُ أخلاقيَّةِ واقعيَّةٍ ومعقولةٍ من جهةٍ، ونبيلةٌ ومثاليَّةٌ من جهةٍ أُخرى. وللبحثِ نتائجٌ في محلِّها،

* أستاذ مساعد، رئيس قسم أصول الدِّين في كُليَّةِ الشَّريعة، جامعة حلب، سورِّيَّة، البريد الإلكتروني:

ولعلَّ من أبرزها: أنَّ المرءَ إذا ما تشبَّع بمبدأ أخلاقيِّ وأحلَّه من نفسه محلَّه الأمثال، أي على نحو التخصُّص، فلا شكَّ يكونُ مصحَّحاً لأحكام الضمير، وأخذاً به على سبيل التدرُّج نحو غايةٍ عليا مهذبَةٍ ومحمودةٍ على أيَّة حالٍ.

الكلمات المفتاحية: التخلُّق، المثاليَّة، الوضعيَّة، التجربة الأخلاقيَّة، التخصُّص الأخلاقي، القاعده الأخلاقيَّة.

Abstract

This paper is not meant in its religious context to repeat the moral religious discourse within idealistic hortatory frameworks but rather to, first: to call for a review of value systems in the religious thought generally, and in the Islamic perspective in particular. Second: to propose a new start to the epigenetic movement in the societies facing moral decadence, through a philosophical and practical approach that would strive to escape from the dependence on the duality of idealism and positivism in moral thought. It paves way to explain an intermediary moral formulation that would bring out the realistic academic approach that take into account at the same time the desired ideal objective. In the Islamic moral set up we found ourselves on the creative compound that see the combination of the aspects of both the set ups of idealism and positivism that are far from scourges and shortcomings. Such a set up would be possible through the philosophy of moral discipline that has its references to many of the Islamic texts that the paper seeks to understand and present. On one hand, it is a moral philosophy that is both realistic and logical, while noble and ideal on the other hand. Among the most significant findings: A person when he is ingrained with moral principle and put it above himself, to the level of a discipline, it will become the observer to his conscience that would eventually elevate him to higher and praiseworthy objective.

Keywords: Epigenetic, Idealism, Positivism, Moral Experiment, Moral discipline, Moral principle.

Abstrak

Kajian ini tidak bertujuan untuk mengulang ceramah agama tentang moral tetapi ianya, pertama; seruan untuk menyemak semula pemikiran agama secara umumnya dan Islam secara khususnya, kedua; cadangan kepada gerakan moral dalam masyarakat yang kurang bermoral. Ia boleh dilakukan melalui pendekatan falsasah dan praktikal yang cuba keluar dari dilema pergantungan dua hala (idealisme dan positivism) dalam kotak pemikiran akhlak dan penekanan kepada penerangan akhlak sederhana dan jelas berdasarkan praktikal dan realiti. Dalam rangka akhlak Islam ianya terdiri dari dua asas yang bergabung antara satu sama lain (idealisme dan positivism), mengambil yang baik dan membuang yang buruk dengan menggunakan falsafah (pengkhususan etika) yang terbukti banyak dalam teks-teks Islam. Kajian ini akan meneliti satu persatu teks-teks tersebut dan

memaparkan contoh-contoh darinya. Maka ianya adalah falsafah moral yang realistik dan munasabah, mulia dan ideal di sisi lain. Dapatan kajian yang terpenting adalah sesungguhnya seseorang itu jika memenuhi dirinya dengan prinsip akhlak dan moral, dan meletakkan dirinya ditempat yang ideal dengan cara yang khusus maka ia akan menjadi pembetul diri yang akan membawanya menuju ke jalan yang tinggi dan suci pada apa sekalipun keadaan.

Kata kunci: Idealism, Positism, Pengalaman Etika, Disiplin Moral, Prinsip Etika

مقدمة

لعلَّ البحثَ الفلسفيَّ في الحياة الأخلاقية والكشفَ عمَّا تندمجُ عليه من آيات الخير وأسس الفضيلة وضروب الواجبِ وأساليبِ التَّخَلُّقِ مِنْ أوثقِ الأبحاثِ الجادَّةِ اتِّصَالاً بالفكرِ البشريِّ، ولعلَّ المسؤوليةَّ الأخلاقيةَ لدى الباحثين لا تكتفي منهم بالتَّخَلُّقِ الذَّاتيِّ فحَسب، بل تطلُّبُ منهم فوق ذلك اقتراحَ برامجٍ واقعيَّةٍ ومناهجٍ عمليَّةٍ تذلُّ للناس من حوْلهم أسبابَ الحياة الأخلاقية في حدودِ التَّجربةِ الأخلاقيةِ المتاحة لكلِّ امرئٍ منهم، وأعني الممارسةَ الإراديةَ الهادفةَ المسماةَ بالسُّلوكِ أو التَّخَلُّقِ.

وتتعاظُمُ هذه المسؤوليةَّ البحثيةُ والأخلاقيةُ إذْ تكونُ في ميدانِ البحثِ الدينيِّ، على أنَّ هذا البحثَ في سياقه الإسلاميِّ لا يرمي إلى تكرارِ الخطابِ الأخلاقيِّ الدينيِّ أو اجتراره ضمنَ أُطرٍ تبشيريةٍ أو وعظيةٍ مثاليةٍ كما قد يُظنُّ بادي الرَّأي، وإنما هو:

أولاً: دعوةٌ لإعادةِ درسِ نُظْمِ القيمِ في الفكرِ الدينيِّ عموماً والإسلاميِّ خصوصاً. وثانياً: انطلاقةٌ مقترحةٌ لحركةِ (التَّخَلُّقِ) في مجتمعٍ حاملٍ أو متعشِّرٍ أخلاقياً من خلالِ مقارنةٍ فلسفيةٍ وعمليَّةٍ في آنٍ تحاولُ الخروجَ من مأزِقِ الارتحانِ بين ثنائِيَّةِ (المثاليةِ والوضعيةِ) في الفكرِ الأخلاقيِّ، وتوطئُ لبيانِ معادلةٍ أو فلسفةٍ أخلاقيةٍ بينيةٍ ممكنةٍ في دُنيا النَّاسِ بُحْلِيٍّ أمامهم المنطلقِ العمليِّ والواقعيِّ في سبيلِ إعادةِ التُّهوضِ، وتنصبُّ لهم في الآنِ ذاتهِ الهدفَ المثاليَّ المنشودَ في سبيلِ التَّحَضُّرِ.

وإنَّما يجيءُ اقتراحُ هذه المعادلةِ أو هذه الفلسفةِ في سياقٍ دينيٍّ بُرهاناً على إمكانِ تجاوزِ ما نعاَهُ الفيلسوفُ الفرنسيُّ (أوغست كونت) من قبَلِ على نظريَّةِ الأخلاقِ في

المنظور الديني (اللاهوتي)، يوم عدّها طائفةً من (الأفكار الخياليّة المكرّرة)، يتناقلها علماء اللاهوت والدين في دُهورٍ عن الكيفيّة التي تنمو بها الأخلاقُ أو يحصلُ بها (التخلُّق)، وفي افتقارٍ أو عَوَزٍ إلى منهجيّةٍ دقيقةٍ محدّدة واضحةٍ قابلةٍ للتّنفيدِ في مستوى الممكن الإنساني¹.

وعليه، يكون سؤالُ البحثِ الرئيسِ على النحو الآتي:

هل الفلسفةُ الأخلاقيّةُ الدّينيّةُ الإسلاميّةُ فلسفةٌ إطلاقيّةٌ ومثاليّةٌ الغاية والوسيلة معاً، فيكون من العسيرِ أو العصيِّ تشخيصُها في الواقع؟ أو هي فلسفةٌ مثاليّةٌ في غايتها وعمليّةٌ منطقيّةٌ في وسائلها، أي في التخلُّق، فيكونُ تفعيلُها وتمثّلُها ممكناً يناسبُ الطّاقة البشريّةَ والنّسبيّةَ المطبوعةَ في بُنكِ القدرةِ الإنسانيّةِ؟ وإذا كان الأمرُ كذلك في السُّؤالِ الثّاني، وهو كذلك فعلاً، فما الخطوّةُ الأولى التي تستقيمُ بها حالةُ التخلُّقِ العمليِّ في دُنيا النّاسِ، لتسيرَ بهم من بعدُ في طريقِ الغايةِ الأخلاقيّةِ المثاليّةِ؟ وبنحوٍ آخر: ما السّبيلُ المقترحُ للمضيِّ في طريقِ تكوينِ الملكاتِ الأخلاقيّةِ عند النّاسِ؟

وفي ميدانِ الفكرِ الأخلاقيِّ عموماً تَرى أنّ المدارسَ الفلسفيّةَ قد جهّدت لأوّلِ عهدِ النّاسِ بها في الإجابةِ على مثلِ هذا السُّؤالِ الأخلاقيِّ في حدودِ الفلسفةِ، فكانَ أن تنازعت كلٌّ من المدرستين؛ (المثاليّةُ والوضعيّةُ)، على نحوٍ يُرى منه شبهُ التباينِ بينهما، ووجهُ هذا التّباينِ:

أنّ المدرسةَ المثاليّةَ في طابعها الإطلاقيِّ ليستَ تقبلُ سوى الحالةِ الأخلاقيّةِ الكاملة، تلك التي إمّا أن تأتيَ جُملةً واحدةً وإن على وجهِ الإرهاقِ أو لا تأتي، وهي بذلك تُغفلُ النّسبيّةَ الإمكانيةَ للبشرِ في عمليّةِ التخلُّقِ، وهذه آفتُها.

أمّا المدرسةُ الوضعيّةُ المنطقيّةُ وإن كانت تبدو أقربَ منلاً من واقعِ الإنسانِ

1 انظر: ليفي بريل، لوسيان، فلسفة أوغست كونت، ترجمة: د. محمود قاسم وآخرون، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريّة، 1952م)، ص39.

وأطوعَ لقدرته وأكثرَ مؤاتاهُ ومنطقيَّةً في بابَةِ التخلُّقِ، غيرَ أنَّها تُفضي إلى تععيد تلك النسبيَّاتِ، أي جعلِها القاعدةَ الأخْلَاقِيَّةَ المِثَالِيَّةَ المطلوبةَ وإنَّ على حسابِ الغاياتِ العُظمى والمثُلِ العليا التي نادَتْ بها عقولُ الحكماءِ وتعاليمُ الأديانِ، وهذه آفتُها.

وفي الرُّؤيةِ الإسلاميَّةِ لفلسفةِ الأخلاقِ نَقَعُ على مُركَّبٍ بديعٍ وتوليفَةٍ جديدةٍ، اندججتَ على ما في كلتا المدرستينِ من مزايا، وتنزَّهتَ عمَّا آلتنا إليه من آفاتٍ ومحاذِرٍ، وقد كان ذلك فيها عبرَ فلسفةِ (التَّخْصُّصِ الأخْلَاقِيِّ) التي تَلوِّحُ شواهدُها في كثيرٍ من نُصوصِ المأثورِ الإسلاميِّ.

فما فكرُهُ التَّخْصُّصِ الأخْلَاقِيِّ؟ وما شواهدُها؟ وإلى أيِّ من المدرستينِ السَّالفتينِ تُنسَبُ؟ أم هي فلسفةٌ توفيقِيَّةٌ تقعُ في خطِّ التَّوسُّطِ والمُشْتَرِكِ بينِ الفلسفتينِ، فتكونُ بذلك فلسفةً معقولةً واقعيَّةً من جهة، وفي الوقتِ عينه فلسفةً نبيلةً ومثاليَّةً من جهةٍ أخرى؟

هذا ما رامَ البَحْثُ اجتلاءه وفقَ منهجٍ نقديٍّ حيالَ جوابِ أهمِّ المذاهبِ الأخْلَاقِيَّةِ في مسألةِ التخلُّقِ، ووفقَ منهجٍ استقرائيٍّ وتحليليٍّ يتلمَّسُ معالمَ الجوابِ الإسلاميِّ عبرَ نماذجٍ من نُصوصِه وآثارِه¹.

وأنا في هذا البَحْثِ أقولُ ولكنَّ لا أقطعُ القولَ، إذ لا يحسُنُ القطعُ بباحثٍ، ولا سيَّما في القضايا التي تزدادُ عمقاً بما تزدادُ به شرحاً، ولذا فأنا أعرضُ الكلامَ عرضاً دوَّماً

1 ولا يفوتنا الإلماعُ ههنا إلى أنَّه قد خُصِّصت للأخلاقِ في المأثورِ الإسلاميِّ كتبٌ تعالجُها من طريقِ الحكمةِ أو الحديثِ أو الأثرِ أو الحكايةِ، بيدَ أنَّه لم توجدَ كتبٌ منهجيةٌ تدرسُ الأخلاقَ دراسةً فلسفيَّةً نظريَّةً إلا بعدَ عصرِ التَّرجمةِ، ودخولِ بعضِ المترجماتِ الأخْلَاقِيَّةِ التي أُنبِهتَ أذهانَ بعضِ الفلاسفةِ المسلمينِ إلى ضرورةِ معالجةِ الأخلاقِ على هذا النمطِ الفلسفيِّ المتَّسعِ. ولم يكنَ تأخُّرُ ظهورِ مثلِ هذه الدِّراساتِ الأخْلَاقِيَّةِ على النمطِ الفلسفيِّ لقصورِ فكريٍّ في عقليَّةِ المسلمينِ، بل كان ذلك لأنَّ الحاجةَ إلى مثلِ هذه الدِّراساتِ الفلسفيَّةِ لم تكن قد فرضتْ نفسها بعد، وذاك أنَّ الحياةَ العمليَّةَ والتخلُّقَ الفعليَّ كانا يشغلانِ الجانبَ الأهمَّ من تفكيرِ المسلمينِ، في سبيلِ إعدادِ الكفاءاتِ الذين تقومُ بهم وعليهم مهمَّةُ البلاغِ، والذين كانوا أحوجَّ إلى العملِ منهم إلى النَّظرِ المدقِّقِ المُحلِّلِ. وكانت كتبُ الحديثِ كتباً تتحدَّثُ عن فلسفةٍ أخْلَاقِيَّةٍ عمليَّةٍ، ولكنَّ الجديدَ في بحثنا هو اقتراحُ تبنيِّ هذه المنظومةِ الأخْلَاقِيَّةِ على نحوِ التدرُّجِ أو المرحليَّةِ بحسبِ الطَّاقةِ الإنسانيَّةِ، وهو ما شخَّصته فكرُهُ التَّخْصُّصِ الأخْلَاقِيِّ، على ما سيأتي بيانه.

تحكُّم، وقد حملني على إيرادِه حُسْنُ النِّيَّةِ وخلوصُ الطَّوَيَّةِ، لِلنَّاسِ عَامَّةً وللمؤمنينَ خاصَّةً، ولا أَمْرٌ عَلَى نَفْسِي الزَّلَلُ فيما كَتَبْتُ، ولكن رجائي إلى القارئِ الكريمِ أن يأخذَ لنفسِه ما كانَ صواباً، وأن يدعَ لي ما رآه خطأً، وأحسبني قد أنصفتُه بهذا، فليُصنِّفني كما أنصفتُ. والله المستعانُ وإليه المآبُ.

فلسفة التخلُّق بين المثاليَّة والوضعيَّة؛ قراءة نقدية موجزة

أولاً: فلسفة التخلُّق في المذهبِ المثاليِّ (Idealism):

تَهضُ فِكرُهُ التخلُّقَ في المذهبِ المثاليِّ¹ على الاعتقادِ بثباتِ طبيعةِ الإنسانِ ووحدتها، يَشْفَعُها اعتقادٌ نظيرُ بثباتِ القواعدِ الأخلاقيةِ وعمومها وإطلاقها وهمائيتها، ومن ثمَّ فهي صالحةٌ ومنشودةٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

ولذا تُلفي فلسفة التخلُّقِ التَّعبيرَ عن تلكِ القواعدِ في هذا المذهبِ على هيئةِ مصطلحاتٍ مجردةٍ ومفارقةٍ لما هو واقعٌ وعمليٌّ، وترى الفيلسوفُ أو الإنسانُ ذا النزعةِ المثاليَّةِ يتعاطى التَّفكيرَ في هذه القواعدِ والقيمِ العامَّةِ (كالحقِّ والخيرِ والجمالِ والسَّعادةِ) على نحوِ كليٍّ ونظريٍّ، أي يمثُل ما كان يفعلُ سُقراطُ وأفلاطونُ وأرسطو قديماً، ومَن لَفَّ لِقَمهم حديثاً ك(كانط ومالبرانش) وغيرهم مَن عاش في سبيلِ نظريَّةِ (المثُل العُلوية) مجتمعةً، فباتَ من جرَّي ذلكِ غريباً عَن مُحيطه الواقعيِّ لانصرافِ فكرِه إلى علياءِ العالمِ المثاليِّ، ولدأبه في تحصيلِ الكمالِ الإنسانيِّ الذي تقتضيه فلسفةُ التخلُّقِ، أي في تحصيلِ التَّحَقُّقِ بفضيلةِ التشبُّهِ التامِّ باللهِ رمزِ الخيرِ المطلقِ، إذ تلك هي فضيلةُ الإنسانِ الماترةِ.

1 المثاليَّة بالمعنى الفلسفيِّ العامِّ نزعةٌ فلسفيَّةٌ تقومُ برِّد كلِّ وجودٍ إلى الفكرِ بأوسعِ معانيه، وكانَ أوَّل من نظَّر لها أفلاطون في كلامه عن (نظريَّة المثل)، في إشارةٍ إلى عالمِ المعقولاتِ أو عالمِ المثالِ أو الخيالِ الذي ينبغي أن يرتحَنَ إليه الواقعُ البشريُّ، وهي بهذا المعنى مقابلةٌ للواقعيةِ، وهي نزعةٌ ترتحَنُ للواقعِ، وترى أنَّ من غيرِ الإمكانِ الخروجَ عن حدودِ الواقعِ إلى عالمِ المثالِ المفارقِ للوجودِ البشريِّ، ولذا ترى لزومَ التَّقيدِ بالواقعِ المعيشِ والمُحسَّ وإملاءاته، بقطعِ النَّظرِ عن الوجودِ المثاليِّ المفارقِ. انظر: صليبا، جميل، المعجم الفلسفي (بيروت: الشَّركة العالمية للكتاب، 1994م)، ج2، ص337 و552.

وعلى الرُّغم من أنَّ أرسطو قد انتقد نظريَّة أستاذه أفلاطون في المثل¹، وعدّها فرضيةً زائدةً أو مُزاوِدةً لا يُمكن البرهانُ عليها ولا الإفادَةُ منها عملياً، فإنَّه قد بقيَ في حدودِ دائرةِ هذه المثاليَّة المطلوبةِ بإطلاق، وإنْ كان قد عدَّل شيئاً من منهجيَّة هذا المذهب ساعةً اعتمدَ فكرةَ الاستقراءِ الواقعيِّ (لا الفكرِ المجرَّد أو التأمل) منطلقاً في رصدِ جِماعِ الأخلاقِ المطلوبةِ إنسانياً. ورُغم هذا، بقيَ هذا النَّسقُ المثاليُّ في فلسفةِ الأخلاقِ مَشحوناً بالمشكلاتِ الجدليَّةِ الكثيرةِ التي لم يَسْتَطعِ العقلُ الخُلوصَ فيها إلى رأيٍ حاسمٍ أو قولٍ فصليٍّ².

وفي الفلسفةِ الحديثةِ يَنسِجُ الفيلسوفُ الألمانيُّ إيمانويل كانط (1804م) على المنوالِ ذاته، إذ يرى أنَّ الأخلاقَ التي هي من مقتضياتِ العقلِ العمليِّ - بحسبِ تعبيره Practical Reason - يجبُ أن تتعلَّقَ بالعقلِ النَّظريِّ التأمليِّ - أو ما يسمِّيهِ كانط العقلَ المحضَ أو الخالصَ Pure Reason -، وأن تكونَ سائرةً في هديِّه متوافقةً وإيَّاه، بحيثُ تكونُ القيمةُ العقليَّةُ والقيمةُ الأخلاقيَّةُ وجهينِ لعملةٍ واحدةٍ، في تناظرٍ وتطابقٍ تامٍّ³. ومن قَبْلِهِ كذلك مَصَّى الفيلسوفُ الفرنسيُّ نيكولا مالبرانش (1715م) في خطِّ المثاليَّةِ الأخلاقيَّةِ، يومَ قرَّرَ بجلاءٍ أنَّ النَّظامَ الأخلاقيَّ المطلوبَ إنْ هوَ إلَّا مجموعُ

1 انظر: أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة: أحمد لطفي السيّد، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1924م)، ج1، ص69 فما بعدها، وص229 فما بعدها.

2 من هذه المشكلاتِ مثلاً ما يتَّصلُ بالرَّذيلةِ، وهنا يُمكنُ أن تُثارَ مشكلَةُ الرُّللِ الإنسانيِّ وأسبابه: أترتبطُ هذه الأسبابُ بالبدنِ والشَّهوةِ كما يُقال؟ أمْ هناكُ فعلاً تناقضٌ حتميٌّ في الطَّبيعةِ بينِ الجسمِ والرُّوحِ؟ هل البدنُ دائماً مصدرُ الرَّذيلةِ؟ أمْ توجدُ للرُّوحِ شهواتٌ خاصَّةٌ تحبِّطُ بالإنسانِ إلى الرَّذيلةِ؟ إلى غيرِ ذلك من الأسئلةِ العديدة؛ انظر: جعفر، محمَّد كمال، دراساتٍ فلسفيَّةٍ، (مصر: مكتبة دار العلوم، 1977م)، ص264.

3 انظر: كانط، إيمانويل، نقد العقلِ العمليِّ، ترجمة: غانم هنا، (بيروت: المنظمة العربيَّة للترجمة، 2008م)، ص98-99. وانظر: كانط، إيمانويل، تأسيس ميثافيزيقيا الأخلاق، ترجمة: عبد الغفار مكّاوي، (القاهرة: الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، 1965م)، ص77 فما بعدها، وص94 فما بعدها، وانظر: بدوي، عبد الرّحمن، الأخلاق عند كُنْت، (الكويت: وكالة المطبوعات، 1979م)، ص189.

الكمالات الثابتة المتجلية في أفعال الله، والتي يجب أن تتجلى كذلك في أفعال الإنسان مجتمعة¹.

ثانياً: فلسفة التخلق في المذهب الوضعي (Positivism):

بعدما كانت الأخلاق في صورتها التقليدية (المثالية) ماضية نحو الإطلاق والمثال التام وتجاوز نسبة الزمان والمكان باعتبارها - أي الأخلاق - وليدة الطبيعة الإنسانية الثابتة كما سلف، استحالت الأخلاق عند الفلاسفة الوضعيين علماً واقعياً يدرس العادات، تأثراً منهم بالمنهج الاستقرائي الوضعي في البحث العلمي، وسعياً في تطبيقه ومحاكاته في العلوم الإنسانية؛ وفي مقدمتها (الأخلاق)، ومن ثم، أمسّت فلسفة الأخلاق عند الوضعيين علماً واقعياً (realism) يدرس العادات ويكتفي بوصفها (دون تقييماها) استناداً إلى الملاحظة، وبهذا أضحت الأخلاق فرعاً من علم الاجتماع² الذي يؤمّلون إقامته على قاعدة واقعية وتجريبية.

وبينما كان المثاليون يرون أنّ للأخلاق طابعاً عقلياً ثابتاً ومطلقاً وأنّ الحقيقة الأخلاقية (واقعة ذهنية كلية) لا يمكن أن ترهن للتجربة الواقعية³، رأى الوضعيون أنّها بخلاف ذلك (ظاهرة موضوعية) يمكن ملاحظتها في هيئة جزئيات شاحصة وظواهر قائمة في الواقع.

وقد تبلور هذا الاتجاه الأخلاقي الوضعي على يد الفرنسي أوغست كونت (1857م) في عصر اضطرب فيه التفكير الأخلاقي، واستبدت بكونت أيامئذ رغبة ملحة - كغيره من المفكرين آنذاك - في الإصلاح والإعمار عميق الدمار الذي حلّ بفرنسا إثر ثورتها الشهيرة سنة (1789م)، فأخذ بإنشاء فلسفته الوضعية في فرنسا، وتبعه في ذلك

1 انظر: عباس، د. رواية، مالبرانش والفلسفة الإلهية، (مصر، دار النهضة العربية، 1996م)، ص 37.

2 أي ما دام غرض الأخلاق المعرفة الوضعية بالطبيعة البشرية؛ فديّة وجمعيّة، لا بحثاً لاهوتياً أو ميتافيزيقياً.

3 يقول كانط: "لا تصلح المبادئ التجريبية مطلقاً لأن تؤسس عليها القوانين الأخلاقية، ذلك لأنّ طابع الشمول الذي يجعلها صالحة لجميع الكائنات العاقلة بغير تمييز والضرورة العملية غير المشروطة عليها عن هذا الطريق يتنفيان إذا كان مبدؤهما مستمداً من التكوين الخاص بالطبيعة الإنسانية أو من الظروف العارضة التي توجد فيها؛" كانط، تأسيس ميتافيزيقيا الأخلاق، ص 94.

فلاسفةٌ ومفكِّرون كَثُرَ، مِن أمثالِ الفرنسيِّينِ إيميلِ دوركايم (1917م)، ولوسيان ليفي بريل (1939م)، وفريدريك روه (1917 Frederic Rauh م)، وغيرِهِم.

ولا يَخْفَى أَنَّ الثَّورَةَ الفرنسيَّةَ قد أطاحت بالنِّظامِ الاجتماعيِّ السَّائدِ آنذاك، ووجَّهت للديانة المسيحيَّةِ نقداً صارماً أشبه بِرِفْضِ صارخٍ، ورأى كونت أنَّ من العَبَثِ بِمِكانِ البحثِ في الدِّيانَةِ المسيحيَّةِ عن أُسسٍ للأخلاقِ، لِمثالِيَّتِها الحالِمةِ من جانبٍ، ولِعجزِها في رأيه عن مُواكبةِ خُطَى العِلْمِ من جانبٍ آخَرَ، ومِن ثَمَّ، شرَعَّ بالبحثِ عن أُساسٍ جديديٍّ للتخلُّقِ، فكانَ العِلْمُ الوَضْعِيُّ الذي يَرِصدُ العاداتِ المشتركةِ والدَّائِعَةَ أُساساً يَنْهَضُ عليه منطِقُ الأخلاقِ -والدِّينِ أيضاً-، بما يَضْمَنُ تَخْلِيْقَ المِجْتَمَعِ على أُساسٍ واقعيٍّ ومنطقيٍّ -وربَّما عفويٍّ-، أي على أُساسٍ مُمكنٍ¹.

وعلى هذا التَّسَقِّقِ دَرَجَ الفرنسيُّ لوسيان ليفي بريل إذ رَدَّ الأخلاقَ النَّظريَّةَ المِثَالِيَّةَ قائلاً: إنَّها لا تُوجَدُ، وإنَّ الذي يُوجَدُ فعلاً إنَّما هو المعطى الأخْلَاقِيُّ الرَّاهِنُ وحسبُ، فليست الأخلاقُ عِلْماً معيارياً في المقامِ الأوَّلِ، بل هي عِلْمٌ وُضِعِيَ يَدْرُكُ بالملاحظةِ والنَّظَرِ الواقعيِّ، ولذا سَمَّاهُ (عِلْمَ العاداتِ الأخْلَاقِيَّةِ)².

وفي إيضاحٍ أجلى لفلسفةِ التخلُّقِ في المذهبِ الوَضْعِيِّ ابتداءً الفرنسيُّ فريدريك روه بالبحثِ أوَّلاً عن حلٍّ صحيحٍ لمسألةِ الأخلاقِ النَّظريَّةِ، إذ رأى أنَّ من اللازمِ البدءَ بِتَحْرِيرِ هذه المسألةِ من رِقَّةِ المِيتافيزيقيا أوَّلاً، ثُمَّ التوجُّهَ شَطْرَ التَّجْريَّةِ المباشرةِ لتحديدِ القيمِ الأخْلَاقِيَّةِ³.

1 انظر: ليفي بريل، لوسيان، فلسفة أوغست كونت، ص 37 فما بعدها. وانظر: كريسون، أندريه، المشكلة الأخْلَاقِيَّةُ والفلاسفة، ترجمة: عبد الحليم محمود، (القاهرة: دار الشَّعب، 1979م)، ص 301 فما بعدها.

2 انظر: ليفي بريل، لوسيان، الأخلاق وعلم العادات الأخْلَاقِيَّةِ، ترجمة: محمود قاسم، (مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1935م)، ص 24.

3 أراد روه، ومِن قِبَلِه كونت، أن يَجْعَلَ من النِّظامِ الأخْلَاقِيِّ المتكاملِ ديانَةً إنسانيةً أو مدنيَّةً تحلُّ محلَّ الدياناتِ الأخرى بحيثُ تسودُ الجماعةُ الإنسانيَّةُ في المستقبلِ، بحيثُ تُسَمَّى (الجمعيَّةُ الوَضْعِيَّةِ). انظر: جعفر، محمَّد كمال، دراسات فلسفيَّة، ص 265. وانظر:

على أَنَّ التَّجْرِبَةَ الأخْلَاقِيَّةَ المنشودَةَ فِي رَأْيِ الوَضْعِيِّينَ عموماً، ورأْيِ روه خصوصاً، هي تجربةٌ أخْلَاقِيَّةٌ متكاملةٌ، أي إنَّهَا تُلْمُّ بِمَقَارِيدِ الوَاقِعِ الأخْلَاقِيِّ كَلِّه، وبِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ عَالَمِ (المثُل)، فالمبادئُ الأخْلَاقِيَّةُ لا تُدْرِكُ إِلَّا بِالسُّلُوكِ ذَاتِهِ وبالعَمَلِ عَيْنِهِ، ولذا، وَجِبَ عَلَى المرءِ أَلَّا يَحْدَّ سُلُوكَهُ بِإِطَارِ أُنْمُودِجٍ جامِدٍ ثابتٍ -مَثَلٍ أَعْلَى- ينطلقُ من تَأْمُلِهِ ثُمَّ يَعمَدُ إلى مَحَاكَاةِهِ وتَقْلِيدِهِ كما يقترحُ المَثَالِيُون، بل عليه أن يُبدِعَ أُنْمُودِجَهُ ويستنتجَ تَطْبِيقَهُ بِنَحْوِ كَامِلٍ، وَأَن يَجِدَّ إِبْدَاعَهُ بالعَمَلِ دائماً¹.

وفي ذلك - كما لا يَخْفَى - نَسْبِيَّةٌ أخْلَاقِيَّةٌ تتغافلُ عَنِ مِيعَارِيَّةِ الأخْلَاقِ وَطَلَاغَتِهَا وَثَبَاتِهَا، وهنا مَحْزُ التَّقَدُّ عَلَى المَذْهَبِ الوَضْعِيِّ، إذ يرفضُ اعتبارَ القَوَاعِدِ الأخْلَاقِيَّةِ نَهَائِيَّةً أو ثابتةً، لأنَّ فِي ذلك - على ما يرى الوَضْعِيُّونَ - تَسْلِيماً بَعْدَ تَطَوُّرِ طَبِيعَةِ الإنسانِ، فكان لا مندوحةَ عندهم من التَّسْلِيمِ بِنَسْبِيَّةِ الأخْلَاقِ وَتَطَوُّرِهَا بِتَطَوُّرِ الفردِ وَالمُجْتَمَعِ، ولذا درجوا على تسميةِ عِلْمِ الأخْلَاقِ بِ(علمِ العاداتِ الأخْلَاقِيَّةِ) على ما اقترحَهُ لوسيان ليفي بريل².

التَّخْصُّصُ الأخْلَاقِيُّ؛ فلسفةٌ للتَّخَلُّقِ من منظورٍ دينيٍّ، أو محاولةٌ لتفعيلِ حركةِ الأخْلَاقِ فِي المِجْتَمَعِ المُعَاصِرِ:

لعلَّه قد بَانَ لَكَ مِمَّا سَلَفَ أَنَّ عَمَلِيَّةَ التَّخَلُّقِ فِي الفِلسَفَةِ الأخْلَاقِيَّةِ ما تَزَالُ مَتَرَدِّدَةً عَلَى مِثْلِ الصَّرَاحِ بَيْنَ طرفَيْنِ؛ مثاليٍّ عَصِيٍّ عَلَى الإِحَاظَةِ وَالتَّطْبِيقِ، وَوَضْعِيٍّ واقِعِيٍّ غَيْرِ أَنَّهُ مَتَمَرِّدٌ عَلَى طَلَاغَةِ القِيمِ وَثَبَاتِهَا.

والواقِعُ أَنَّ كُلَّ إنسانٍ فِي كُلِّ لِحْظَةٍ من لِحْظَاتِ يَوْمِهِ وَعَلَى امْتِدَادِ عَمْرِهِ قد يَعِيشُ - أو يَعِيشُ فعلاً - نَحْواً من هَذَا الصَّرَاحِ الباطنيِّ الخفيِّ، وَبِجَهْدٍ جُهْداً يسيراً أو عَسيراً للتَّكْيِيفِ وَظُرُوفِ بَيْتِهِ وَوُجُودِهِ الأخْلَاقِيِّ، فيُدْرِكُ بَعْدَ لَأْيٍ وَتَفَكُّرٍ أَنَّ أَعْمَالَهُ لَيْسَتْ حَوَادِثَ حَيَادِيَّةً بَوَاجِهِهِ، بل ثَمَّةُ صِبْغَةٌ أخْلَاقِيَّةٌ تَدنو بِهَا من جَمِي الخَيْرِ أو جَمِي الشَّرِّ، فِي

1 انظر: روه، فريدريك، التَّجْرِبَةُ الأخْلَاقِيَّةُ، ص 145، نقلاً عن: كريسون، أندريه، المشكلة الأخْلَاقِيَّةُ، ص 306.

2 انظر: ليفي بريل، لوسيان، الأخْلَاقِ وَعِلْمُ العاداتِ الأخْلَاقِيَّةِ، ص 67.

كلَّ حركةٍ يأتيها، وفي كلِّ فعلٍ يُمارسه أو استعدادٍ يُديه.
وبرجوع المرءِ إلى تجربته الشخصية يلمس من باطنه حرارة الوجدان الحيِّ، ويُدرك حقيقة نشاط هذا الوجدان وأثر هذا النشاط، ويتحسَّن مقدار حيويته ونموه وفاعليته ورهافته، ويأتي التَّفكيرُ الأخلاقيُّ العلميُّ محاولاً تحديده هذه الفاعليَّة الأخلاقيَّة، ورسم خطوطها المائزة، وتبيان صلتها بسائرِ الفاعليَّات الإنسانيَّة.
على أنَّ ذلك التَّخلُّق ليس يتمُّ إلا من طريق التَّدريج الواقعيِّ الممكن والمتاح، ودوماً بجاهلٍ لِمشاعرِ التُّزوع النَّفسيِّ نحو الكمال¹ بطبيعة الحال، إذ لا يتأتَّى تحصيلُ ذلك التَّخلُّقِ المنشودِ جُملةً واحدةً من جهةٍ، ولا بفرضٍ مثاليَّةٍ طوباويَّةٍ من جهةٍ أخرى، وهذا ما حاولنا مقارنته في الفلسفة الآتية.

أولاً: فكرةُ التَّخَصُّصِ الأخلاقيِّ في المأثورِ الإسلاميِّ؛ البيانُ والتَّأصيلُ:

لا يُماري عاقلٌ عارفٌ في أنَّ التَّخَصُّصَ العلميَّ أمسى اليومَ مطلباً رئيساً في سبيلِ النَّهضة العلميَّة الشَّاملة، إذ بات من المعلوم أنَّ الإحاطة بجميع العلوم على نحو الخبرة والإتقان شأنٌ لا يتأتَّى لفردٍ من الأفراد، فضلاً عن أنَّ ادعاء استيعاب جميع المعارف في حقلٍ علميٍّ ما ينعكس سلباً على الثِّقة بما لدى المدَّعي، فكان لا بدَّ من فكرة التَّخَصُّصِ التي تتناسب وحدود الطَّاقة الفرديَّة أمام طلاقة فضاءات العلوم واتساعاتها، وهنا أقول: مثلما يتدرَّج هرمُ التَّخَصُّصِ العلميِّ من مرحلة ابتناء القاعدة العلميَّة الضَّروريَّة إلى السَّيرِ صُعداً حتَّى بلوغِ مرحلة رأس الهرم؛ وهو التَّخَصُّصُ الذي يُعرف به العالمُ، تراءى لي كذلك أن تكون الأخلاق أو القيمُ الأخلاقيَّة تَخَصُّصاً كما العلوم والمعارف، في سبيلِ النَّهضة الأخلاقيَّة المنشودة لِمجتمعٍ متعزِّزٍ أخلاقياً، وعلى أنَّك قد

1 يرى الفيلسوفُ الفرنسيُّ (رينيه ديكارت 1650م) أنَّ فكرة الكمال هذه حقيقة فطريَّة أوَّلِيَّة، بل هي أسبق في العقل من معرفة النَّقص، فإنَّ مَنْ لا يَعْرِفُ الشَّيءَ لا يفتقده. انظر له: ديكارت، رينيه، التأمُّلات في الفلسفة الأولى، ترجمة: عثمان أمين، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريَّة، 1969م)، التأمُّل الثالث، ص153.

تَعْجَبُ لتلك الفكرة بادي الرأْي أقولُ لك: ولم لا؟، واسمع ملامح الفكرة التي أقصد:
 بعد ابتناء القاعدة الأخلاقية اللازمة الواعية، وأعني التي تُلمُّ بالحد الأدنى والمقبول
 في كلِّ قيمةٍ أخلاقيةٍ معتبرة؛ أهداً أو تركاً، يجري تحيُّر قيمةٍ ما أو قيمتين، ليتوالى المرأُ
 والمرأسُ فيهما إلى حدِّ التمكُّن والتشُّبع، فيغدو الإنسانُ عندئذٍ معروفاً بهذه القيمة، أو
 قُل بلُغة العلوم: يغدو متخصصاً ومُجَلِّياً فيها، فتصيرُ فيه (ملكةً راسخة).

وهذا إنَّما يشمُّ بعدَ عمليةٍ تخلُّقٍ على مستوى القاعدة، تتضمَّن أوَّل ما تتضمَّن
 الإيمانَ بضرورة الأخلاقِ في سبيل النهوض الحضاريِّ، وأمارهُ هذا الإيمانُ إعراضٌ عن كلِّ
 قيمةٍ ذميمةٍ، وإقبالٌ على كلِّ قيمةٍ حميدةٍ، كلاهما بالحدِّ المقبولِ والممكنِ بشرياً وواقعياً،
 ليُصارَ بعدَ ذلك إلى التزام قيمةٍ ما، تستهوي صاحبها، فيلازمها إلى أن يبلغَ بها مبلغَ
 التعوُّد والتثبُّت والترسُّخ، فيكونُ الأمرُ هكذا: تخليةٌ، ثمَّ تحليةٌ، ثمَّ تجليةٌ⁽¹⁾.

وليسَ هذا الأمرُ بدعاً، فقد بلعنا من منهج النبوة تنويه النبي ﷺ بأقوامٍ أو أفرادٍ
 بأعيانهم لمجرد قيمةٍ أخلاقيةٍ مفردةٍ عرفوا بها وعُرفت عنهم، وسائرُ أحوالهم مكتومةٌ
 مستورةٌ، وكانَ ذلكَ منه على سبيل المدح والإشادة، وهالكٌ أمثلةٌ:

1- في قيمةِ الحلمِ والأناة: امتداحه ﷺ للأشجِّ أشجَّ عبدِ القيس: «إنَّ فيكَ
 خصلتينِ يُحبُّهما اللهُ الحِلْمُ والأناة»².

2- في قيمةِ الوحدة: إشادته ﷺ ببني الحارث بن كعب يومَ سألهم: «بمَ كنتم تغلبون
 من قاتلكم في الجاهلية؟»، قالوا: كُنَّا نغلبُ مَنْ قاتلنا أنَّا كُنَّا نزرعُ عن يدٍ، وكُنَّا نجتمعُ
 فلا نفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم. فقال: «صدقتم»³.

1 حلى في كذا تجليةً فهو مُجَلِّ، أي بالغ في الكشف والإظهار والاعتناء.

2 مسلم، مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت) كتاب الإيمان، باب:
 الإيمان بالله ورسوله، ج1، ص36، رقم 126.

3 البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعه جي، (بيروت: دار الكتب العلمية
 ودار الريان، 1988م)، ج6، ص11، رقم 2148.

- 3- في قيمة الحياء: مرَّ رسولُ الله ﷺ على رجلٍ من الأنصارِ وهو يعظُ أخاهُ في الحياءِ - أي يُعاتبه فيه ويتهاه عن كثرته، فقال رسولُ الله ﷺ: «دَعُهُ، فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ»¹.
- 4- في قيمة الصَّفْح: قال ﷺ: «أَيَعَجْزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أَبِي ضَمْضَمٍ»، قالوا: وَمَنْ أَبُو ضَمْضَمٍ؟، قَالَ: «رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يَقُولُ: عَرَضِي لِمَنْ شَتَمَنِي»²، كنايةً عن الصَّفْح.
- 5- في قيمة غياثِ الملهوفِ والمحتاج: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ رَجُلًا كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَتَاهُ الْمَلِكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟، قَالَ: مَا أَعْلَمُ، قِيلَ لَهُ: أَنْظِرْ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَبِي كُنْتُ أَبَايُغِ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِمْ، فَأَنْظِرُ الْمَوَسِرَ³ وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الْمَعِيرِ، فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ. وفي رواية: فَقَالَ اللَّهُ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَتَجَاوَزُوا عَنْهُ»⁴.
- 6- في قيمة التَّزَاوُرِ والتَّوَاصُلِ الاجتماعيِّ الخالِصِ: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ، نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: طِبَّتْ وَطَابَ مِمَّشَاكَ، وَتَبَوَّأَتْ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا»⁵. وقال: «إِنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرَصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ -طَرِيقِهِ- مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا (تَحْفَظُهَا وَتُرَاعِيهَا)؟ قَالَ: لَا غَيْرَ أَبِي أَحَبَّبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّبَكَ كَمَا أَحَبَّبْتَهُ فِيهِ»⁶.

1 البخاريُّ، محمَّد بن إسماعيل، **الجامع الصَّحيح**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (بيروت ودمشق: دار ابن كثير واليمامة، 1987م)، كتاب الإيمان، باب: الحياء من الإيمان، ج1، ص11، رقم 24.

2 أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: محمَّد محيي الدِّين عبد الحميد، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، كتاب الأدب، باب: ما جاء في الرَّجُلِ يُجِلُّ الرَّجُلَ قَدِ اغْتَابَهُ، ج4، ص423، رقم 4889.

3 أيُّ مُهْلَبُ فِي الْمَطَالِبَةِ وَالِاقْتِضَاءِ وَلَا يُضْبِقُ عَلَيْهِ وَلَا يُعَاجِلُهُ بِإِزْعَاجٍ وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا.

4 البخاريُّ، **الجامع الصَّحيح**، كتاب الأنبياء، باب: ما ذُكِرَ عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ج4، ص169، رقم 3451.

5 الترمذيُّ، محمَّد بن عيسى، **الجامع الصَّحيح**، تحقيق: أحمد محمَّد شاکر وآخرون، (بيروت: دار إحياء الثَّراث العربيِّ، د.ت)، كتاب البرِّ والصَّلة، باب: ما جاء في زيارة الإخوان، ج4، ص195، رقم 2008.

6 مسلم، **الجامع الصَّحيح**، كتاب البرِّ والصَّلة والأدب، باب: في فضلِ الحبِّ في الله، ج8، ص12، رقم 6714.

7- في قيمة كفالة الأيتام: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَبَضَ يَتِيمًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»¹.

8- في قيمة السخاء: قال ﷺ: «تَجَاوَزُوا لِلْسَّخِيِّ عَن دَنِيهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْخُذُ بِيَدِهِ عِنْدَ عَثْرَتِهِ»².

9- في قيمة اللين وخفض الجناح: قال ﷺ: «أَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَجُلًا كَانَ سَهْلًا مُشْتَرِيًا وَبَائِعًا وَقَاضِيًا وَمُقْتَضِيًا، الْجَنَّةَ»³.

10- في قيمة الاعتماد على الذات: قَالَ ﷺ: مَنْ يَضْمَنْ لِي وَاحِدَةً وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ ثُمَّ قَالَ: «أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا»⁴، وفي رواية: «وَلَا سَوَطَكَ إِنْ يَسْقُطُ مِنْكَ حَتَّى تَنْزِلَ إِلَيْهِ فَتَأْخُذَهُ»⁵.

11- في قيمة صون المرافق العامة: قال ﷺ: «مَرَّ رَجُلٌ بِعُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُحْيِيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ، فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ»⁶. وقال: «نَزَعَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ عُصْنًا شَوْكٍ عَنِ الطَّرِيقِ؛ إِمَّا كَانَ فِي شَجَرَةٍ فَقَطَعَهُ وَأَلْقَاهُ، وَإِمَّا كَانَ مَوْضُوعًا فَأَمَاطَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ بِهَا، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ»⁷.

12- في قيمة رعاية الأسرة والطفل: قَالَ ﷺ: «نِسَاءٌ قُرَيْشٍ خَيْرٌ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ؛

1 البرمذنجي، الجامع الصحيح، كتاب البرِّ والصَّلة، باب: ما جاء في رحمة اليتيم وكفاليته، ج4، ص172، رقم 1917.

2 الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق عوض الله وعبد المحسن إبراهيم، (القاهرة: دار الحرمين، 1415هـ)، ج2، ص46، رقم 1199، وفيه ضعف.

3 التيساني، أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار البنداري وسيد كسروي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1991م)، كتاب البيوع، باب: حسن المعاملة والرِّفق في المطالبة، ج4، ص60، رقم 6295.

4 المصدر نفسه، كتاب الزكاة، باب: فضل من لا يسأل الناس شيئاً، ج2، ص51، رقم 2371.

5 ابن حنبل، أحمد، المسند، (مصر: مؤسسة قرطبة، د.ت)، مسند أبي ذرٍّ رضي الله عنه، ج5، ص127، رقم 21327.

6 مسلم، الجامع الصحيح، كتاب البرِّ والصَّلة والأدب، باب: فضل إزالة الأذى عن الطريق، ج8، ص34، رقم 6836.

7 أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب: في إمطة الأذى عن الطريق، ج4، ص532، رقم 5247.

- أَحْنَاهُ عَلَى طِفْلٍ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ»¹.
- 13- فِي قِيَمَةِ التَّعَفُّفِ عَنِ الْمَحَارِمِ: قَالَ ﷺ: «مَنْ يَضْمَنَ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ، وَفِي رَوَايَةٍ: مَنْ تَوَكَّلَ لِي مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ وَمَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ تَوَكَّلْتُ لَهُ بِالْجَنَّةِ»³.
- 14- فِي قِيَمَةِ إِحْسَانِ الْجَوَارِ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ إِذَا أَحْسَنْتُ أَيْ قَدْ أَحْسَنْتُ، وَإِذَا أَسَأْتُ أَيْ قَدْ أَسَأْتُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَالَ جِيرَانُكَ قَدْ أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَإِذَا قَالُوا إِنَّكَ قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ»⁴.
- 15- فِي قِيَمَةِ تَتَبُّعِ الْحِكْمَةِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ: قَالَ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَسْلُكُ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا إِلَّا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقَ الْجَنَّةِ»⁵. وَقَالَ ﷺ: «لَنْ يَشْبَعَ الْمُؤْمِنُ مِنْ خَيْرٍ يَسْمَعُهُ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الْجَنَّةَ»⁶.
- 16- فِي قِيَمَةِ الشَّهَادَةِ: قَالَ ﷺ: «يُعْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ ذَنْبٍ إِلَّا الدِّينَ»⁷.
- 17- فِي قِيَمَةِ الرَّفْقِ بِالْحَيَوَانَ: وَعَنْهُ ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبُيْتِهَا فَدَلَعَتْ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ فَفَرَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا - أَيْ بِحُقِّهَا - فَعُفِّرَ لَهَا»⁸.
-
- 1 البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾، ج 4، ص 164، رقم 3434؛ ومسلم، الجامع الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل نساء قريش، ج 7، ص 182، رقم 6620.
- 2 لِحْيَيْهِ: بفتح اللام، تثنية لحي، وهما العظامان في جانبي الفم ومنبت اللحية. وخص ما بين الرجلين وما بين اللحيين بالذكر لما يُوقعان فيه من محارم وبيلة.
- 3 والروايتان عند البخاري، الجامع الصحيح، الأولى في: كتاب الرقاق، باب: حفظ اللسان، ج 8، ص 100، رقم 6474. والثانية في: كتاب المحارِبين، باب: فضل من ترك الفواحش، ج 8، ص 164، رقم 6807.
- 4 ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، كتاب الزهد، باب الشاء الحسن، ج 2، ص 1411، رقم 4222.
- 5 أبو داود، سنن أبي داود، كتاب العلم، باب: التَّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، ج 3، ص 355، رقم 3645.
- 6 الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ج 5، ص 30، رقم 2686.
- 7 مسلم، الجامع الصحيح، كتاب الإمارة، باب: مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُفِّرَتْ خَطَايَاهُ إِلَّا الدِّينَ، ج 6، ص 38، رقم 4991.
- 8 مسلم، الجامع الصحيح، كتاب السَّلام، باب: فضل ساقِي البهائم المحترمة وإطعامها، ج 7، ص 44، رقم 5997.

18- في قيمة التواضع وترك الكبر: قال ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ؛ الْكِبْرِ وَالْعُلُولِ¹ وَالذَّيْنِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»².

19- في قيمة ترك النَمِيمَةِ: قال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ تَمَّامٌ»³.

20- في قيمة ترك قِطِيعَةِ الرَّحِمِ: قال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»⁴.

وثمة مزيد من الشواهد تُنبئ عن الحصر في هذا المقام وفي هذا السياق، ولكن لا بد من التنبيه ههنا إلى أنّ أيّ قيمة خيّرة وإن تضاءل قدرها في النظرة العابرة تصلح محلاً للتخصّص الأخلاقي الذي نقصد، يقول ﷺ: «أربعون خصلةً أعلاهنّ مبيحة العنز⁵؛ ما من عاملٍ يعملُ بمخلةٍ منها رجاءً ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة». قال حسّان⁶: فعَدَدْنَا مَا دُونَ مَبِيحَةِ الْعَنْزِ مِنْ رَدِّ السَّلَامِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الْأَدَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَنَحْوِهِ، فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً⁷.

وبينا أننا مشغولون باقتراح ما يمكن أن يكون القاعدة الأخلاقية الجامعة والمناسبة لأن يفترع عليها التخصّص الأخلاقي، لاح لي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ (النجم: 32)⁸، فوجدته ملاكاً جامعاً وافياً لاقتراحي المنشود، فلا أجدر ولا أصلح من حالة اجتناب الكبائر والفواحش لتأسيس قاعدة هرم التخصّص

1 العُلُولُ: الخيانة، وأصله السَّرْفَةُ مِنْ مَالِ الْعَيْمَةِ قَبْلَ الْقِسْمَةِ.

2 الترمذی، الجامع الصحیح، کتاب السیر، باب: ما جاء في العُلُولِ، ج4، ص132، رقم 1572.

3 مسلم، الجامع الصحیح، کتاب الإيمان، باب: بیان غِلْظِ تحريم النَمِيمَةِ، ج1، ص70، رقم 303.

4 مسلم، الجامع الصحیح، کتاب البرِّ والصَّلةِ والأدب، باب: صِلَةِ الرَّحِمِ وتحريم قِطِيعَتِهَا، ج8، ص8، رقم 6685.

(5) العنز: واحدة المعز، ومبيحتها: عطيتها، يتنفع بلبينها وصوفها ويبيدها. وقد جعلها النبي ﷺ أعلى الخصال على ما يرى فيها من صغر وقلة، كي يُعَمَّ جميع ما يستصغر الناس بذله من وجوه البرِّ والمعروف، مهما ضؤل نفعه.

6 حسّان بن عطيّة الدمشقي أحد رجال سنن الحديث، من ثقات التابعين.

7 البخاري، الجامع الصحیح، کتاب الهبة وفضلها، باب: فضل المبيحة، ج3، ص166، رقم 2631.

8 ويُشيرُ إلى هذه القاعدة مثل حديث الترمذي: «مَنْ قَبِضَ بِيَمَانِهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، إِلَّا أَنْ يَعْمَلَ ذَنْبًا لَا يُغْفَرُ لَهُ» أي إلا أن يفتقد القاعدة الأخلاقية الجامعة. والحديث أخرجه الترمذي، الجامع

الصحيح، كتاب البرِّ والصَّلةِ، باب: ما جاء في رحمة اليتيم وكفاليته، ج4، ص172، رقم 1917.

الأخلاقيِّ، مشفوعةً - طبعاً - بالإيمان بضرورة الأخلاق كما أسلفنا، وبدورها الرئيس في استنهاض الحضارة.

وإنما تَرَجَّحَ هذا المقترَحُ القرآنيُّ لديَّ - ولعلَّه يَرَجِّحُ لديك أيضاً - بناءً على أنَّ هذه الحالة أو الصِّفَّةَ كافيةٌ لإدراج صاحبِها في حدِّ الإحسان¹: ﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى. الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾، وغيرِ خافٍ أنَّ (الإحسان) بمعناه في هذا السِّياق هو الجذرُ الحيُّ لكلِّ قيمةٍ أخلاقيَّةٍ صالحةٍ.

أمَّا معنَى (التَّخَصُّصُ الأخلاقيُّ) الذي أقصدُ فهو الإيمانُ بقيمةٍ مُختارةٍ، وترجمتهُ هذا الإيمانُ إلى واقعٍ مشهودٍ وسعيٍّ وظوبٍ على غرارِ (التَّحَرِّيِّ) الذي حكاَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّنْ يَجَازِلُ التَّخَصُّصَ بِقِيَمَةِ الصِّدْقِ مثلاً في قوله: «وإنَّ العَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا»²، وأنَّ يُجَاذِرَ المتخَصِّصُ من نفسه أيَّ تهاونٍ أو تقصيرٍ أو تفریطٍ أو فتورٍ حيالَ القيمةِ التي اختارها، وألاً يقبلَ فيها أيَّ فتنةٍ أو رهانٍ أو مساومةٍ، وأنَّ يعلمَ أيضاً أنَّ التَّقْصِيرَ فيها لا يقبلُ التَّرميمَ إلاَّ بشيءٍ من جَنَسِها حصراً، فلا يكونُ التَّرميمُ والتَّلَافِي بِقِيَمَةٍ أُخْرَى.

على أنَّ التَّخَصُّصَ في قيمةٍ بعينها ليسَ يعني بحالٍ تَحَلُّلاً من سائرِ القيمِ، أو تسويغاً للتَّفریطِ فيها، أو خطأً من قيمتها، أو تعالياً عليها³، وإنَّما غايةُ الأمرِ تواضعٌ صادقٌ

1 انظر في هذا المعنى: الرَّازي، فخر الدِّين مُحَمَّد بن عمر، مفاتيح الغيب، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 200م)، ج29، ص6، والبقاعي، برهان الدِّين إبراهيم بن عمر، نظم الدرر، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1995م)، ج7، ص326-327.

2 مسلم، الجامع الصَّحيح، كتاب البرِّ والصَّلة والأدب، باب: فُحِّحَ الكذبُ وحُسنُ الصِّدْقِ وفضله، ج8، ص29، رقم 6804. ومعنى التَّحَرِّيِّ هَهُنَا منطوقٌ تماماً على معنى التَّخَصُّصِ الذي نَقَصِدُ، بما يَعْنِيهِ من بَذْلِ الجُهدِ واستفراغِ الوَسْعِ في التَّحَلُّقِ بِقِيَمَةٍ ما حَتَّى تَكْتَبَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وتُعرَفَ عنه ويُعرَفَ بِهَا عِنْدَ النَّاسِ.

3 ولا سِيَّما إنَّ عِلِمَتَ أَلَا فَوَاصِلَ حَدِيَّةٍ بَيْنَ مَفَارِدِ القِيَمِ الأخلاقيَّةِ، فكلُّ متحلٍّ أو متخَصِّصٍ بِقِيَمَةٍ ما لا بدَّ أن يلامسَ بنحوٍ ما - نظريُّ أو عمليُّ - سائرَ القيمِ، ويتعبَّرُ آخَر: لَيْسَتْ القِيَمُ الأخلاقيَّةُ قِيَمًا واقِفَةً، بل قِيَمٌ متعدِّيةٌ فيما بينها في مشهدٍ أخلاقيٍّ متكاملٍ أو يسيرٌ نحو التَّكاملِ، ويبقى الجميعُ على تنوعِ اختصاصاتهم يصدرونَ -

واعترافٌ بشريٌّ بالقصورِ بُحَاةِ القيمِ الأخرى، ولا ريبَ في أنَّ الاعترافَ في عالمِ الأخلاقِ يَسْتَحِيلُ فضيلةً خالصةً.

وأما مجالات وفروعُ التخصُّصِ الأخلاقيِّ فتصدِّقُ على سبيلِ السَّلْبِ والإيجابِ، وأعني على سبيلِ التنزُّهِ التَّامِّ عن خُلُقٍ ذَنِّيّ، أو التلبُّسِ التَّامِّ بخُلُقٍ سَيِّئٍ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ (البقرة: 222)، وهم الذين تابوا وآبوا إلى كلِّ خُلُقٍ حميدٍ، وهي (الأخلاق الإيجابية)⁽¹⁾، ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: 222)، وهم الذين جانبوا وفارقوا كلَّ خلقٍ ذميمٍ، وهي (الأخلاق السلبية)⁽²⁾.

وهكذا، لا يزالُ الإنسانُ متطهِّراً عن مثلبةٍ، أو تائباً إلى منقبةٍ، وهو في كلا السبيلين دائمٌ وكادحٌ إلى أن يلاقِي رَبَّهُ ملاقاةَ الأبرارِ الأطهارِ، وهل الأبرارُ والأطهارُ سوى أولئك الذين استغفروا جُهدهم واستغفروا وسعهم بصدقٍ في ميدانِ التخلُّقِ والإحسانِ؟!.

واستطراداً أقول: لستُ أَقِفُ بالقيمِ المقصودةِ في هذا البابِ عند حدِّ القيمِ الأخلاقيةِ فحَسْبُ، وإنما أتعدى بها إلى القيمِ الدينيةِ كذلك، وأعني المناسكَ والشعائرَ على تنوعها وتفاوتها، وذلك بوصفِ تلكِ المناسكِ والشعائرِ قيماً أخلاقيةً في حقيقتها، لو عَلِمَ المسلمون...!، ومن ذلك (الصلاة) مثلاً، فهي قيمةٌ أخلاقيةٌ في ضمنِ قيمةٍ دينيةٍ: ﴿إِنَّ

بحسبِ الرؤيةِ الإسلاميةِ - عن منهلِ أخلاقيٍّ واحدٍ، وأعني الإنسانَ الكاملَ الجامعَ لخصالِ الخيرِ محمدًا ﷺ: "وكلُّهم من رسولِ الله مُلتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ اللَّحْمِ".

وانظر: دراز، محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، تعريب: عبد الصبور شاهين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1991م)، ص90.

1 في استخدام مفهوم الأخلاق السلبية والإيجابية انظر: دراز، محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، ص87 و93.

2 انظر: ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد، تفسير البحر المديد، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2002م)، ج1، ص286، الرَّاظِي، فخر الدِّين مُحَمَّد بن عمر، مفاتيح الغيب، ج6، ص60، والثَّشِيرِي، عبد الكريم بن هوازن، لطائف الإشارات، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م)، ج1، ص178.

الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴿﴾ (العنكبوت: 45)¹، ومثلها (الصِّيَام): «إِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ»²، و«مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشِرَابَهُ»³، وهكذا قُلَّ في سائرِ مناسكِ الإسلامِ وشعائره، وفي ذلك مثلاً يقولُ الإمامُ مالكٌ: "إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ الْأَعْمَالَ كَمَا قَسَمَ الْأَرْزَاقَ، فُرُبَّ رَجُلٍ فُتِّحَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ وَلَمْ يَفْتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرَ فُتِّحَ لَهُ فِي الصَّدَقَةِ وَلَمْ يَفْتَحْ لَهُ فِي الصَّوْمِ، وَآخَرَ فُتِّحَ لَهُ فِي الْجِهَادِ وَلَمْ يَفْتَحْ لَهُ فِي الصَّلَاةِ"⁴، وهكذا.

ثانياً: فلسفةُ التَّخَصُّصِ الْأَخْلَاقِيِّ؛ المبرِّزُ الواقعيُّ الرَّاهِنُ والغايةُ المأمولةُ

ولعلَّ من أشكلِ مشكلاتِ المسلمينَ اليومَ أنَّ أحدهمَ يجهَدُ في تجميعِ كلِّ القيمِ الدِّينيَّةِ والأخلاقيةِ وتقميشتها ليُلازمَها بالمستوى ذاته ودرجةِ التفوُّقِ والإتقانِ

1 وجاء في الأثر: «مَنْ لَمْ تَأْمُرْهُ صَلَاتُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَهُ عَنِ الْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا» أخرجه الطَّبْرَائِيُّ من حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ فِي: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، (الموصل: مكتبة العلوم والحكم، 1983م)، ج9، ص103، رقم 8543، وأخرجه البيهقيُّ في شعب الإيمان، تحقيق: محمَّد السَّعِيدُ بَسِيوِي زَعْلُول، (بيروت: دار الكتب العلميَّة، 1410هـ)، الباب 21، باب في الصَّلوات، تحسِين الصَّلَاة، ج3، ص174، رقم 3264، وغيره موقوفاً من قولِ ابنِ مَسْعُودٍ، وقال الحافظُ العراقيُّ: "إسناده صحيح"، كذا في: المُغْنِي عن حَمَلِ الْأَسْفَارِ فِي الْأَسْفَارِ فِي تَخْرِيجِ مَا فِي الْإِحْيَاءِ مِنَ الْأَخْبَارِ، تحقيق: أشرف عبد المقصود، (الرياض: مكتبة طبرية، 1995م)، ج1، ص398.

وانظر: رضا، محمَّد رشيد، تفسير المنار، (القاهرة: الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، 1990م)، ج2، ص30.

2 حديثٌ شريفٌ أخرجه البخاريُّ، الجامع الصحيح، كتاب الصَّوْم، باب: هل يقولُ إني صائمٌ إذا شُتِمَ، ج3، ص26، رقم 1904، ومسلم بلفظ: (يَسْخَبُ)، والمعنى واحدٌ أي يصيحُ، الجامع الصحيح، كتاب الصِّيَام، باب: فضل الصِّيَام، ج3، ص157، رقم 2762، ويرفُثُ يفحشُ أو يُجامع.

3 حديثٌ شريفٌ أخرجه البخاريُّ، الجامع الصحيح، كتاب الصَّوْم، باب: مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فِي الصَّوْمِ، ج3، ص26، رقم 1903.

4 أورده ابنُ عبد البرِّ، يوسف بن محمَّد، في التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، (المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة، 1968م)، ج7، ص185، والدَّهْيُ، شمس الدِّين أحمد بن محمَّد، في سير أعلام النبلاء، (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، 1995م)، ج15، ص114.

عينها، ذاهلاً عن فكرة (التخصُّص الأخلاقيِّ) التي تناسب الطَّاقة البشريَّة، وتنسجُم وطبيعة القصور المركَّب فيها، تلك التي ألمع إليها الحديثُ النَّبويُّ القائلُ: "استقيموا ولن تُحصوا"¹، فلو كان المرادُ التَّكليفِيُّ هو استيعاب كلِّ شُعبِ الاستقامة كما أَرَدَف الأمرَ بيانِ استحالةِ إحصائها، ولَعَدَا الأمرُ بالاستقامة ضرباً من التَّكليف بما لا يُطاق، أو مُعضلةً تكليفيَّةً وأخلاقيَّةً ليسَ فيها مخرَجٌ مُتاحٌ أو مقبولٌ شرعاً، وفي ذلك من مخابِلِ الإعناتِ والإرهاق ما نُنزَهه التَّشريعَ عنه، وهنا تبرزُ فكرةُ (التخصُّص الأخلاقيِّ) التي نعرضُ لها الآنَ سبيلاً ذلِولاً ومخرِجاً ممكناً من تلك المعضلة الظَّاهريَّة أو الموهومة.

وأزيدُك إيضاحاً فأقول: إنَّ التزامَ مفرداتِ الاستقامة - وهي جِماعُ القيمِ الأخلاقيَّة - على وجهِ الاستغراقِ والاستقصاءِ والإلتقانِ ممَّا يَحِلُّ عن الرُّتبة البشريَّة، فضلاً عن كونه من المتعذِّرِ والعصبيِّ إلَّا لنبيِّ معصوم.

ومن جرَّاء هذا الدُّهول عن معنَى التَّخصُّص، وادِّعاءِ الانتسابِ الباهتِ والسَّطحيِّ إلى كلِّ القيمِ المحمودَةِ جملةً واحدةً، وهو ما لا يتأتَّى على ما عَلِمْت، ترى المتديِّنَ أو من يدَّعي الأخلاقيَّة في سلوكه يتعاطى قِيَمَهُ بمنطقِ (لَعقِ الطُّفَاوَةِ) كما تقولُ العرب، أو بمنطقِ (التَّش) كما تقولُ العامَّة، فتكادُ لا تَسَلِّمُ له قيمةً بكاملها، وإمَّا يُحصَلُ من كلِّ قيمةٍ يُمارسُها ما لا يُجاوِزُ نسبةً ضئيلةً في أحسنِ الأحوالِ²، حتَّى إذا أعيته استبدلَ بها

1 أخرجهُ مالك في الموطأ بلاغاً، تَحْقِيق: مُحَمَّدُ فُؤَادِ عَبْدِ الْبَاقِي، (مصر: دار إحياء التُّراثِ العربيِّ، د.ت)، كتاب الطَّهارة، باب: جامع الوضوء، ج4، ص34، رقم (66)، ووصلهُ أحمد في المسند، مسندُ باقي الأَنْصار، من حديثِ ثوبان، ج5، ص276، رقم 22432، والدَّارِمِيُّ في: سُنَنِ الدَّارِمِيِّ، تَحْقِيق: فُؤَادُ زَمْرِي وَخَالِدُ السَّعِ الْعَلَمِي، (بيروت: دار الكتاب العربيِّ، 1407هـ)، كتاب الطَّهارة، باب ما جاء في الطَّهْر، ج1، ص213، رقم 680 وغيرهما. ولن تُحصوا أي لن تطيقوا ولن تبلغوا الإحاطة بعموم أخلاق الاستقامة، والاستقامة هي الخلق الجامع.

2 معلومٌ أنَّ كلَّ قيمةٍ أخلاقيَّةٍ لا تقبلُ التَّعْضِيَةَ والتَّبْعِيَةَ، أي أنَّ (ما صدق) كلُّ قيمةٍ أخلاقيَّةٍ لا ينطبقُ على (مفهومها) إلَّا تاماً، فلا يُقالُ مثلاً: نصفُ صادقٍ أو نصفُ أمينٍ، فنصفُ الصَّادِقِ كاذبٌ بالضرورة، ونصفُ الأَمِينِ خائنٌ بالضرورة أيضاً، وهكذا في سائرِ القِيَمِ.

أخرى، وتعاملَ معها بالمنطقِ ذاتِه، وهكذا دواليك¹، فتراه يرمِّمُ تقصيره في قيمةٍ ما بالفنِّز إلى قيمةٍ أُخرى، وسُرْعانَ ما يُعادِرُها إلى غيرها، وهو يظنُّ بذلك أنَّه أتى على منظومةِ الأخلاقِ والشَّمائلِ جميعاً، فيكونُ كالبنَّاء الذي يَربُغُ بتشييدِ قَصْرِ فَخيمٍ، بيدَ أنَّه لا يملكُ كلَّ لبناتِه، أو ليستَ لديه لبنَةٌ سليمةٌ، فلا يَستقيمُ له في بنائِه مِداماً واحداً، ولَعَمري، كيف يَسلُمُ أو يَستقيمُ وكلُّ لبناتِه منقوصةٌ مبتسرةٌ..!

وهذا - للأسف - مثلُ متدبِّينِ اليومِ أو إنسانِ اليومِ غالباً، يلتقطُ شيئاً من كلِّ شيءٍ، ولا يَجهُدُ للتَّخصُّصِ في شيءٍ، وبالتالي تراه غيرَ مأمونٍ في شيءٍ، إذ ليستَ لديه قيمةٌ مَصونةٌ ومقدَّسةٌ بالطلاقِ، أي لا تقبلُ المساومةَ والتَّفريطَ، فكلُّ قيمةٍ عنده عُرضةٌ للتَّضييعِ أو التَّمييعِ، وقابلةٌ في الآنِ ذاتِه للتَّداركِ والتَّعويضِ، ولكنَّ بقيمةٍ أُخرى هي نفسُها تعاني مثلَ ما تُعاني نظائِرُها من القيمِ السَّابقةِ والألاحقةِ، من نقصانٍ وخداجٍ وعجزٍ وعَوَرٍ، فلا تُلفي لديه في النِّهايةِ سوى عيِّناتٍ كابيةٍ موقوتةٍ مختصرةٍ - وتجرِيبيةٍ ربَّما - لقيمٍ ليس فيها شيءٌ وافٍ أو مكتملٍ، فضلاً عن أن يكونَ مُنيفاً أو ساطعاً أو باهراً، ومن ثمَّ، لن يُعرفَ بقيمةٍ ما، ولن تُعرفَ عنه، فهو مجرَّدُ هاوٍ مبتدئٍ في القيمِ الأخلاقيَّةِ، وليس مُحترفاً لأيٍّ منها أو لواحدةٍ بعينها، فيا خسارةَ النَّفسِ في تجارتها!

نعم، لاحت لي ملامحُ هذه الفكرة - فكرةِ التَّخصُّصِ الأخلاقيِّ - على ما بسطتُه بين يديك، فوجدتها حَريَّةً بأن تكونَ سبيلاً ممكناً للعملِ وإعادةِ التُّهوضِ، ومنهجاً واقعياً للتَّحصُّرِ، فقد يُقبَلُ التدرُّجُ في التخلُّقِ والتزامِ القيمِ في هذا الظَّرْفِ الزمانيِّ الحازِّ، وفي هذه الحقبةِ التَّاريخيةِ الجهولِ، أسوةً بمنهجيةِ التَّشريعِ الأولى يومَ كانت، وأعني يومَ أخذتُ بأيدي النَّاسِ إلى طرائقِ الخيرِ أخذاً سَمحاً ريفياً على سبيلِ التدرُّجِ وقَبولِ الممكنِ والمتاحِ²: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

1 لاحظُ أنَّ المَناسكَ الدِّينيَّةَ الجائِيةَ غالباً ما تكونُ مَفرعاً سهلاً للنَّاسِ الذين يُحَفِّقون غالباً في تجويدِ وإتقانِ القيمِ الأخلاقيَّةِ الإنسانيَّةِ.

2 عن عبد الله بن فضالة اللَّيبيِّ عن أبيه قال: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وكان فيما عَلَّمَنِي: «حَافِظُ عَلَي الصَّلواتِ الخمسِ»، قال: قلت: إنَّ هذه ساعاتٌ لي فيها أشغالٌ فَمُرِّي بأمرٍ جامعٍ إذا أنا فَعَلْتُهُ أَجراً

(التَّعَابِن: 16)، و﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطَّلَاق: 7)¹.

وقد أستأنس لهذا النهج المقترح منطلقاً للنهضة الأخلاقية المأمولة بالنبوءة المحمدية القائلة: "يأتي زمانٌ من عمَلٍ فيه بعُشرٍ ما أمرَ به نَجاً"².

وبعد، فهي دعوةٌ في زِيِّ فلسفةٍ ليختارَ كلُّ إنسانٍ عاقلٍ مُنتمٍ للخيرِ قيمةً ما بعدَ تحريرِ القاعدةِ المناسبةِ لها، فيوطنَ عليها نفسه، أي تكونُ ديدنه وهاجسه وهواه، يُلازمها بغيرِ فتورٍ أو انفكاكٍ إلى حدِّ التخصصِ والتعمُّقِ والإشباعِ، فتكونُ فيه أشبهَ بملِكَةٍ راسخة، بل لا ضَيْرَ في المبالغةِ أيضاً، إذ لا مبالغةَ في الخيراتِ ومكارمِ الأخلاقِ، حتَّى إذا ما ثابَ إليها حقّاً، وتمكَّنت منها نفسه، واطمأنَّ إليها قلبه، وأنسَت بها روحه إلى حدِّ التعشُّقِ، شرَعَ بقيمةٍ أخرى لِيباشِرَ التَّخَصُّصَ فيها، وهكذا إلى أن يستكملَ ويستتمَّ منظومةَ القيمِ الأخلاقيةِ إن امتدَّ به عمُرٌ وانفسَحَ له في أثره مجالٌ، فخيركم «مَن طالَ عمُرُه وحسُنَ عملُه»³، كما في المأثورِ النبويِّ.

عني، فقال: (حافظُ علي العَصْرين)، قال: وما كانت من لُعَيْنَا، فقلْتُ: وما العَصْران؟ قال: («صلاةٌ قبلَ طلوعِ الشَّمسِ، وصلاةٌ قبلَ غُرُوبِها»). حديثٌ صحيحٌ أخرجه أبو داود في سننهِ، كتاب الصَّلَاة، باب: في المحافظة على وقت الصَّلوات، ج1، ص136، رقم 428، وابن حَبَّان في صحيحهِ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسَّسة الرِّسالة، 1993م)، كتاب الصَّلَاة، باب: فضل الصَّلوات الخمس، ج5، ص34، رقم 1741، وانظر: ابن رجب، عبد الرَّحمن بن أحمد الحنبلي، كتاب الإيمان من فتح الباري، (المدينة المنورة، مكتبة الغرباء الأثرية، 1417هـ)، ج5، ص19-20.

1 ولعلَّ في الآيةِ تلويحاً بأنَّ وعيَ النَّسبِيَّةِ البشريَّةِ والتَّصَرُّفَ على أساسها سبيلٌ من سبيلِ استيلاءِ اليُسْرِ من رَحِمِ العُسْرِ.

2 التَّرْمِذِي، الجامع الصَّحِيح، كتاب الفتن، باب 79، ج4، ص284، رقم 2267، وقال: حديثٌ غريبٌ.

3 التَّرْمِذِي، الجامع الصَّحِيح، كتاب الرُّعْد، باب: ما جاء في طولِ العمرِ للمؤمن، ج4، ص565، رقم 2329، وأحمد في: المسند، مسند الشَّامِيِّين، حديث عبد الله بن بسر المازني، ج4، ص190، رقم 17734، كلاهما بلفظ: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ النَّاسِ خيرٌ؟ قال: «مَن طالَ عمُرُه وحسُنَ عملُه».

الخاتمة

وفيما يأتي خلاصاتٌ وتعقيباتٌ على ما تقدّمَ بحثُهُ وبيانهُ:

1- إنّ النّسقَ الأخلاقيَّ المثاليَّ في طابعِهِ الإطلاقيّ ليسَ يقبلُ سوى الحالةِ الأخلاقِيَّةِ الكاملة، تلك التي إمّا أن تأتيَ جُملةً واحدةً وإن على وجه الإرهاقِ أو لا تأتي، وهو بذلك يُغفلُ النّسبيَّةَ الإمكانِيَّةَ للبشرِ في عمليَّةِ التخلُّق، وهذه آفتهُ، أي إنّ المذهبَ المثاليَّ بالرُّغم من مثاليّته يبقَى مفارقاً للواقعِ مُستغلِقاً أو عَصياً على التّطبيق.

2- أمّا النّسقُ الأخلاقيُّ الوضعيُّ وإن كان يبدو أقربَ منالاً من واقعِ الإنسان وأطوعَ لقدرته وأكثرَ مؤاتاةً ومنطقيَّةً في بابَةِ التخلُّق، غيرَ أنّه يُفضي إلى تععيد تلك النّسبيّات، أي إلى جعلِها القاعدةَ الأخلاقِيَّةَ المثاليَّةَ المطلوبةً وإن على حسابِ الغاياتِ العُظمى والمثُلِ العليا التي نادَت بها عقولُ الحكماءِ وتعاليمُ الأديان، وهذه آفتهُ.

أي إنّ المذهبَ الواقعيّ فُجَّ وصادمٌ في واقعيّته إذ يُسلّمُ بحاكميَّةِ النّسبيّ على المطلق، وهو ما لا يستقيمُ في الأذهانِ المشدودةِ نحوَ المطلقِ والطّامحةِ إلى مقارنتِهِ، وإن على توازنٍ وتناسبٍ مع الطّبيعةِ البشريَّةِ المحدودةِ القُدراتِ.

3- وفي النّسقِ الأخلاقيّ الإسلاميّ نَقَعُ نحنُ المؤمنين على مُركّبٍ بديعٍ وتوليفَةٍ جديدةٍ، اندججت على ما في كِلا النّسقين السّالفيّين من مزايا، وتنزّهت عمّا آلا إليه من آفاتٍ ومحاذِرٍ، وقد كان ذلك فيها عبرَ فلسفةِ (التّخصُّصِ الأخلاقيّ) التي تلوحُ شواهدُها في كثيرٍ من نُصوصِ المأثورِ الإسلاميّ، فكانت فلسفةً أخلاقِيَّةً واقعيَّةً ومعقولةً من جهةٍ ونبيلةً ومثاليَّةً من جهةٍ أُخرى، على ما مضى بيانهُ، نقولُ ذلك في مشاكلةٍ للمصطلحاتِ الأخلاقِيَّةِ الشّائعةِ ليسَ غير، وإن كنّا نؤمن بأنّ الحكمةَ القرآنيَّةَ والنّبويَّةَ متعاليةٌ على سائرِ الفلسفاتِ الوضعيّةِ.

4- إنّ هذا المنطلقَ الأخلاقيّ الذي تحكيهِ فلسفةُ التّخصُّصِ الأخلاقيّ ويمارسُهُ الإنسانُ في حدودِ رغبتهِ الدّائيَّةِ يلتزمُ في الوقتِ نفسه بمطلبٍ مثلٍ أعلى يعمُّ الحالةَ الموضوعيّةَ والمشهدَ الاجتماعيّ، وبهذا الالتزامِ المزدوجِ الدّائيّ والموضوعيّ يسعى البشرُ إلى

إحقاق مصيرهم الأخلاقي بوصفهم حملة مشعل الفضيلة والخير.

5- القيمة الأخلاقية المرشحة للاصطفاء والصالحه للاختصاص شأنها شأن سائر القيم، تحكي التبل والسمو والفضيلة، وهي - أي القيم - دائماً في العلاء، قريبة وبعيدة في آن، تستهوننا فحُبُّها ونسعى إليها، نحقق منها ما نحقق، ولكننا - نحن البشر - لا نبلغها بأسرها أبداً، وتلك حقيقة الضعف والقصور البشري، وما في ذلك غميرة أو عيب.

6- إذا ما تشبّع المرء بمبدأ أخلاقي وأحلّه من نفسه محله الأمثل، أي على نحو التخصص، فلا شك يكون مصححاً لأحكام الضمير، وأخذاً به نحو غاية عليا مهذبية ومحمودة على أية حال، على أن ذلك يقتضي استمرار الجهد للتخلُّق ببقية الأخلاق المحمودة تباعاً، واقتراح فكرة التخصص لا يعني تحللاً من تمام المسؤولية الأخلاقية الجامعة، فالمؤمن مطالب بتحصيل باقي القيم ما استطاع إليها سبيلاً، وإن ينسب متفاوتة.

7- الأخلاق في المنظور الإسلامي في ضوء فكرة التخصص الأخلاقي تجربة صيرورية تاريخية تستهدف الثورة على الحاضر باسم المستقبل، لتغيير ما في آفاق قوم، أو ما في آفاق الأقسام طراً، بتغيير ما في نفوسهم وما يتبدى في سلوكهم العملي لتحقيق النهضة المنشودة في ظل إنسانية الإنسان، إنَّها ثورة على ما تحقق من أهداف أخلاقية باسم ما يجب تحقيقه، ثورة على الواقع باسم القيمة، بل ثورة على القيمة ذاتها باسم الإرادة المبدعة على الدوام.

8- إنني مؤمن، وقد لا يُخالجني شك فيما أؤمن به، أن العمل الأخلاقي النجیح في سبيل إعادة النهوض الأخلاقي هو العمل المبني على مثل هذا التخصص الذي يُراعي حقيقة النسبية في التركيبة البشرية، فيعمل على وفقها دونما وهن أو نكوص، ويطمح بلسان الرجاء والدعاء في الآن ذاته إلى بلوغ الحالة الأخلاقية المثلى جرياً مع الدعاء النبويِّ الدائع: "إهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت"¹.

1 مسلم، الجامع الصحيح، كتاب صلاة المسافرين، باب: الدعاء في صلاة الليل، ج2، ص185، رقم 1848.

References:

المراجع:

- Aḥmad bin Ḥanbal, Abū ‘Abd Allāh al-Shaybānī, *Musnad Aḥmad*, (Egypt: Mu‘assasah Qurṭubah, no date).
- Al-Bayhaqī, Aḥmad bin Ḥusayn, *al-Sunan al-Kubrā*, ed. Muḥammad ‘Abd al-Qādir ‘Aṭā, (Mecca: Maktaba Dār al-Bāz, 1994).
- Al-Bayhaqī, Aḥmad bin Ḥusayn, *Dalā’il al-Nubuwwah*, ed. ‘Abd al-Muṭī Qal‘ah Jī, (Beirut: Dār al-Kutub ‘Ilmiyyah wa Dār al-Rayyān, 1988).
- Al-Bayhaqī, Aḥmad bin Ḥusayn, *Shu‘b al-Īmān*, ed. Muḥammad Sa‘īd Basyūnī Zaghlūl, Beirut: Dār al-Kutub ‘Ilmiyyah, 1989).
- Al-Bukhārī, Muḥammad bin Isma‘īl Abū ‘Abd Allāh al-Ja‘fī, *al-Jāmi‘ al-Ṣaḥīḥ*, ed. Muṣṭafa Dīb al-Bugha, (al-Yamama and Beirut: Dār Ibn Kathīr, 3rd Edition, 1987).
- Al-Dārimī, Abū Muḥammad ‘Abd Allāh bin ‘Abd al-Raḥmān, *Sunan al-Dārimī*, ed. Fawwāz Zamarlī and Muḥy al-Dīn ‘Abd al-Ḥamīd, (Beirut: Dār al-Fikr, al-‘Arabī, 1986).
- Al-Dhahabī, Shams al-Dīn Muḥammad bin Aḥmad, *Siyar A‘lām al-Nubalā’*, (Beirut: Mu‘assasat al-Risālah, 1995).
- Al-Nasā‘ī, Abu ‘Abd Raḥman Aḥmad bin Shu‘ayb bin ‘Alī al-Khurāsānī, *al-Sunan al-Kubrā*, ed. ‘Abd al-Ghaffār al-Bandārī and Sayyid Kasrawī, (Beirut: Dār Dār al-Kutub ‘Ilmiyyah, 1991).
- Al-‘Irāqī, Abū al-Fadl ‘Abd al-Raḥīm, bin al-Husayn, *al-Mughnī an Ḥaml al-Asfār*, ed. Ashraf ‘Abd al-Miqsūd, (Riyadh: Maktabah Ṭabariyyah, 1995).
- Al-Qushayrī, ‘Abd al-Karīm bin Hawāzīn, *Laṭā’if al-Ishārāt*, (Egypt: al-Hay‘ah al-Miṣriyyah al-‘Āmmah li al-Kitāb, 2002).
- Al-Razi, Fakhr al-Dīn Maḥmūd bin ‘Umar, *Maḥāṣin al-Ghayb*, (Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, 2000).
- Al-Sijistānī, Abū Dawūd Sulaymān bin al-Ash‘ash, *Sunan Abī Dawūd*, ed. Muḥammad Muḥy al-Dīn, commented by Kamāl al-Ḥūt, (Beirut: Dār al-Fikr, 1995)..
- Al-Tirmīdhī, Muḥammad bin ‘Īsā, *al-Jāmi‘ al-Ṣaḥīḥ Sunan al-Tirmīdhī*, ed. Aḥmad Muḥammad Shākir wa Ākharūn, (Beirut: Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī, no date).
- Al-Ṭabarānī, Sulaymān bin Aḥmad Abū al-Qāsim, *al-Mu‘jam al-Awsaṭ*, ed. Ṭāriq ‘Awaḍ Allāh and ‘Abd al-Muḥsin Ibrāhīm, (Cairo: Dār al-Ḥaramyn, 1994).
- Aristotle, *‘Ilm al-Akhlāq ilā Niqūmākhūs*, translated by: Aḥmad Luṭfī al-Sayyid, (Cairo: Lajnah al-Ta’līf wa al-Tarjamah wa al-Nashr, 1924).
- Badawī, ‘Abd al-Raḥmān, *al-Akhlāq ‘indā Kant*, (Kuwait: Wakālah al-Maṭbū‘āt, 1979).
- Cresson, André, *al-Mushkilah al-Akhlāqīyyah wa al-Falāsifah*, translated by Dr. ‘Abd al-Ḥalīm Maḥmūd, (Cairo: Dār al-Sya‘ab, 1979).
- Darrāz, Muḥammad ‘Abd Allāh, *Dustūr al-Akhlāq fī al-Qurān*, arabized by ‘Abd al-Ṣabūr Shāhīn, (Beirut: Mu‘assasah al-Risālah, 1991).
- Descartes, René, *al-Ta‘ammulāt fī al-Falsafah al-Ūlā*, translated by ‘Uthmān Amīn, (Cairo: Maktabah al-Anjalū al-Miṣriyyah, 1969).
- Herrick, Jim, *An Introduction to Humanism*, (London: Prometheus Books, 2005).

- Ibn Hibbān, Abū Ḥātim al-Tamīmī al-Bustī, *Ṣaḥīḥ Ibn Hibbān*, arranged by ibn Balbān ‘Alā’ al-Dīn al-Fārisī, ed. Shu‘ayb al-Arana’ūt, (Beirut: Mu‘assasah al-Risālah, 1993).
- Ibn Majah, Abū ‘Abd Allāh Muḥammad bin Yazīd al-Qazwīnī, *Sunan Ibn Majah*, ed. Muhammad Fu‘ād ‘Abd al-Bāqī, (Egypt: Dār al-Fikr, no date).
- Ibn ‘Abd al-Barr, Yūsūf bin Muḥammad, *al-Tamhīd limā fī al-Muwaṭṭa’ min al-Ma‘ānī wa al-Asānīd*, (Morocco: Wizārat ‘Umūm al-Awqāf wa al-Shu‘ūn al-Islāmiyyah, 1968).
- Ibn ‘Ajībah, Abū ‘Abbās Aḥmad bin Muḥammad, *Tafsīr al-Baḥr al-Madīd*, (Beirut: Dār al-Kutub ‘Ilmiyyah, 2002).
- Ibn Rajab, ‘Abd al-Raḥmān bin Aḥmad al-Ḥanbalī, *Kitāb al-Īmān min Faṭḥ al-Bārī*, (Medina: Maktabah al-Ghurabā’ al-Athariyyah, 1996).
- Ja‘far, Muḥammad Kamāl, *Dirāsāt Falsafīyyah*, (Cairo: Maktabah Dār al-‘Ulūm, 1977).
- Kant, Immanuel, *Naqd al-‘Aql al-‘Amaliy*, translated by Ghānim Hanā, (Beirut: al-Munazzamah al-‘Arabiyyah li tarjamah, 2008).
- Kant, Immanuel, *Ta’sīs Mūtāfīzīyā al-Akhlāq*, translated by ‘Abd al-Ghaffār Makkāwī, (Cairo: al-Hay‘ah al-Miṣriyyah al-Āmmāh li al-Kitāb, 1965).
- Levy-Brill, Lucien, *al-Akhlāq wa ‘Ilm al-‘Ādāt al-Akhlāqīyyah*, translated by Maḥmūd Qāsim, (Egypt: Maṭba‘ah Muṣṭafā al-Bābī al-Ḥalabī, 1935).
- Levy-Brill, Lucien, *Falsafah Auguste Comte* translated by Maḥmūd Qāsim wa Ākharūn, (Maktabah al-Anjlū al-Miṣriyyah, 1952).
- Mālik bin Anas, Abū ‘Abd Allāh al-Aṣḥabī, *al-Muwaṭṭa’*, ed. Muhammad Fu‘ād ‘Abd al-Bāqī, (Egypt: Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī, no date).
- ‘Abbās, Riwayāh, *Malebranche wa al-Falsafah al-Ilāhiyyah*, (Egypt: Dār al-Nahḍah al-‘Arabiyyah, 1996).
- Ṣalībā, Jamīl, *al-Mu‘jam al-Falsafī*, (Beirut: al-Sharikah al-Ālamiyyah li al-Kitāb, 1994).
- Rauh, Frédéric, *al-Tajribah al-Akhlāqīyyah*, according to Cresson, André, al-Mushkilah al-Akhlāqīyyah, translated by ‘Abd al-Ḥalīm Maḥmūd, (Cairo: Dār al-Sya‘ab, 1979).
- Riḍā, Muḥammad Rashīd, *Tafsīr al-Manār*, (Cairo: Hay‘ah al-Miṣriyyah al-Āmmāh, 1990).